MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research
Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية

السرد الرحلي الإفريقي العربي: من مرويات السفر إلى تفكيك مركزية العنف الاستعماري "أسفار استوائية رحلات في قارة أفريقيا نموذجا"

نُورَة أُخَّرُو[1]

باحثة في مركز دراسات الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والترجمة، تكوين الفكر الأدبي والنقد الحديث، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية /المملكة المغربية

استلام البحث:26-03-2024 مراجعة البحث :16-04-2025 قبول البحث:14-05-2025

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل سردية الرحلة الإفريقية العربية ومكوناتها عبر البحث في أنساقها المضمرة بهدف المقارنة بين طبيعة المتخيل الذي يحكيه السارد الجوال وهو يستكشف الفضاء والإنسان وأنماط العيش التي تميز القارة الإفريقية؛ وذلك عبر مقارنة بين هذا النمط من التصوير والعنف الاستعماري الذي غالبا ما اتصفت به الرحلات الأوربية إلى الجنوب، ولعل النظر إلى هويات الجنوب المتعددة من زاوية مرويات السفر العربي إلى إفريقيا من شأنه أن يدفعنا إلى بناء تصور نقدي للخطاب الرحلي وصوغه الفني سواء أعبر المذكرات اليومية أم المشاهدات المدونة باعتبارهما مكونين رئيسيين في جنس الرحلة انطلاقا من التفاعل القائم بين ثنائية الأنا والآخر وفضاءات الرحلة.

الكلمات المفتاحية: السرد الرحلي–أسفاء استوائية– العنف الاستعماري– الكتابة المضادة.

Abstract:

This study aims to analyze the narrative of the African-Arab journey and its components by exploring its implicit structures. The goal is to compare the nature of the imagination presented by the traveling narrator as they explore the space, people, and ways of life that define the African continent. This comparison is made between this mode of representation and the colonial violence often associated with European journeys to the South. Moreover, looking at the multiple identities of the South through the lens of Arab travel narratives to Africa could guide us in constructing a critical perspective on the travel discourse and its artistic formulation, whether through daily diaries or recorded observations, as these are two main components in the genre of travel, stemming from the interaction between the duality of the self and the other and the spaces of the journey.

Keywords: travel narrative, tropical voyages, colonial violence, Counter-discourse.

مقدمة

تنتمي نصوص *"أسفار استوائية: رحلات في قارة إفريقيا"* [2] إلى محكيات السفر، وهي حصيلة زيارات قام بها "عثمان أحمد حسن"[3] إلى عدد من دول القارة الإفريقية ما بين 1976م حتى 2017م، شملت إثيوبيا، أوغندا، كينيا، تنزانيا، زنجبار، الكونغو برازافيل، رواندا، تشاد، النيجر، الصومال وغيرها. وقد شكلت هذه الرحلات مناسبة للتقاطع مع ثقافات إفريقية

[1]– باحثة في مركز دراسات الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والعقيدة والفنون وعلوم التربية، تكوين الفكر الأدبي والنقدي الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المملكة المغربية العلوية.

[2] – عثمان أحمد حسن، أسفار استوائية: رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، دار السويدي للطباعة والنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات، الطبعة1، 2019.

[3]– ديبلوماسي وكاتب قصصي ورحالة ومترجم وصحفي ساخر، رأس نادي القصة السوداني، والأمانة العامة للاتحاد العربي لأندية القصة والسرد. صدر له: "حواشي الغواية" مجموعة قصصية، "الخرطوم"2010، "ليالي سخريار"، "حكايات ساخرة" الخرطوم 2016، توج كتاب "أسفار الاستوائية رحلات في قارة أفريقيا" بجائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة عام 2019.

متباينة من حيث اللغات، والأديان، والبنى الاجتماعية، مما أتاح للرحالة الانفتاح على تعددية ثقافية خصبة، وفتح أمامه إمكانية كتابة أخرى عن القارة، تنأى عن النظرة الفوقية التي لطالما وسمت تمثلات الغرب الاستعماري لإفريقيا وساكنتها.

تأتي هذه المرويات بوصفها ممارسة ثقافية ضدية، تنخرط في مساءلة التمثلات النمطية، وتفتح أفقا لكتابة بديلة أو ما يعرف في النقد ما بعد الكولونيالية بـ "الكتابة المضادة" (Counter-discourse)، حيث يصبح السفر وسيلة لإعادة إنتاج معرفة غير مركزية، تتجاوز النزعة الاستشراقية في تمثيل الآخر. ومن خلال توظيف آليات الملاحظة والوصف والتدوين، حيث يعمل السارد على بناء تصور جديد عن القارة الإفريقية من الداخل، بعيدا عن الصورة التي روجت لها الرحلات الأوروبية، والتي كثيرًا ما صورت إفريقيا كأرض بدائية، موحشة، وقابلة للاستعمار.

وبينما ينزع الخطاب الغربي إلى اختزال **الآخر** الإفريقي ضمن ثنائيات **التوحش/التمدن، والسواد/البياض، والصمت/الكلام،** سعت نصوص أسفار استوائية إلى تقويض هذه الثنائيات، من خلال استحضار التجربة اليومية، واستكشاف أبعادها الثقافية والإنسانية الإفريقية. فالمرويات هنا لا تقرأ فقط كسرد عابر، بل باعتبارها أداة للمقاومة الرمزية، وخطابًا ينتج معرفة مغايرة تشتبك مع الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمعات الإفريقية، وتستدعي في الآن ذاته نقدًا مزدوجًا للذات وللآخر، على نحو ما نظّر له عبد الكبير الخطيبي.

وبناء على ذلك، تطرح هذه الدراسة الأسئلة التالية: كيف تعيد رحلة **"أسفار استوائية"** إعادة تمثيل التمثلات الجسد الإفريقي من منظور عربي؟ وإلى أي حد يمكن اعتبارها شكلا من أشكال الكتابة المضادة التي تسعى إلى تفكيك المركزيات الغربية؟ ثم ما هي الاستراتيجيات السردية والمعرفية التي اعتمدها الكاتب لتجاوز الصور النمطية، وتقديم تمثيل أكثر عدالة وإنصافًا للإنسان الإفريقي وثقافته؟

1. الكتابة المضادة في مرويات السفر: نقد المركزية الغربية وتفكيك الهويات

تمثل الجولات التي قام بها السارد الجوال لحظة مهمة للاقتراب أكثر من حضارة القارة الإفريقية وثقافاتها، بوصفها ردا كتابياً عبر جنس الرحلة، وذلك بهدف تقديم تشخيصات تختلف عما تجسده المركزية الغربية، بخلفياتها الاستشراقية، من رؤى ومواقف ومنظورات تصدر عن وجهة نظر تسعى إلى تأكيد منطق التفوق والهيمنة الغربيين لتفسير أحوال الآخر المختلف الذي يعتبرونه "قابلا للاستعمار"[4]؛ وأن موقعهم يتحدد بالضرورة في "سلم التاريخ عن طريق سلك السبل الصحيحة التي يجب الأخذ بها للحاق بركب الحضارة الغربية"[5].

وفي هذا الإطار، يظهر أن هذا اللقاء بين الذات والغير يؤدي إلى تفاعل إيجابي أو سلبي، حيث "يخلخل المفاهيم والانتظارات والتراكمات لدى الطرفين، ويزعزع المقومات النسقية للهوية الثابتة، فينعكس هذا على المكتوب في النص الرحلي"[6]خصوصا النصوص الغربية[7]. بينما تختلف الخطابات السردية العربية، التي تهدف إلى تقويض تلك المقومات والأنماط التي رامت الخطابات الاستعمارية إلى تكريسها، عبر الاعتماد على استراتيجيات سعت إلى نبذ "الاختلاف الوحشي الذي يقذف بالآخر في خارج مطلق"[8].

---

[4] – سعيد البازعي، هجرة المفاهيم: قراءات في تحولات الثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، ط1، 2021، ص: 63.

[5]– عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الطبعة ط1، 1997، ص: 33.

[6]– إبراهيم الحجري، متاهة المكان في السرد العربي، دائرة الثقافة الشارقة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة 1، 2019، ص: 32.

[7] – إن معظم الرحلات الأوربية التي زارت القارة الإفريقية لم يكن الهدف منها ارتياد المجهول واكتشاف الآخر بقدر ما كانت تهدف إلى التمهيد لمباشرة فعل الاستعمار في القارة الإفريقية وإخضاعها للنموذج الأوربي عبر مختلف أشكال الانتداب والاستعمار والسيطرة من خلال القيام بعمليات استكشافية داخلها بطلب من حكوماتهم الأوربية: فرنسا وبريطانيا وإسبانيا وأيضا من طرف الجمعيات الاستكشافية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن 19 وبداية القرن 20م.

[8]– عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة 1، 2009، ص: 10.

لهذا يتأسس "النقد المزدوج" عند عبد الكبير الخطيبي على نقد المركزيات وتفكيكها، بالإضافة إلى نقد خطاب النقاء الهوياتي الأصلي، الذي يتعارض مع واقع يشهد تعددا وتعقيدا.

فهو يدعو إلى فهم العالم من منطلق التعدد "ولا يمكن أن يشكل في حد ذاته وحدة أو كلا متماسكًا بإمكاننا أن نحصره داخل منظومة واحدة. لذا فأنا أدعو إلى نقد مزدوج: ينصب علينا كما ينصب على الغرب، ويأخذ طريقه بيننا وبينه، فيرمي إلى تفكيك مفهوم الوحدة التي تثقل كاهلنا والكلية التي تجثم علينا، وهو يهدف إلى تقويض اللاهوت والقضاء على الإيديولوجية التي تقول بالأصل والوحدة المطلقة. ويبدو لي أن مثل هذا السبيل هو الكفيل بأن يدعم استراتيجيتنا"[9].

فبإمكان البلدان التي تخضع لسيطرة الغرب – مهما كان شكل السيطرة – من أن تدرك إدراكا أحسن "لأسس الهيمنة الغربية، وتتخذ طريقها – بعيدا عن كل أصل ووحدة وهيمنة – نحو سؤال لم يسبق له مثيل"[10]. وعلى هذا الاعتبار يمكن أن تكون القارة السمراء، إلى جانب العالم العربي فضاء لتصفية الاستعمار، مادام الغرب ينظر إليهما نظرة استعلائية، إلى درجة أنه يصفهما بالجهل ومعاداة كل سبل التقدم التي من شأنها أن تسهم في نهضة إفريقيا؛ "فرغبتهم في التحرر ونضالهم المستميت من أجل تقويض الهيمنة الغربية يصبح تعطيلا لمسارات التطور الفكري والأدبي لإفريقيا"[11].

ولعل رحلة عثمان أحمد حسن تسهم في تعقب أثر الكتابة السياسية، عبر "اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص هو حادثة ثقافية لابد من ربطها بمظاهر الحياة السياسية والثقافية"[12]، ويظهر ذلك فيما تمنحه من إمكانات للتعبير عن صور الآخر عبر مشاهدات تهم أساسا بالأماكن والأحداث والشخوص، "فالأمم ذاتها تتشكل من سرديات ومرويات"[13] بتعبير إدوارد سعيد، مما يسمح بالتعرف على مجاهل القارة الإفريقية وفق رؤية متوازنة يعمل بموجبها على تدوين مشاهداته في جو من التفاعل الفكري والثقافي والحضاري والمكاني.

يتجلى هذا التفاعل بشكل طبيعي في التقاء عنصرين مختلفين من حيث المرجعيات والمكونات والتمثلات التي يفرضها منطلق التحول من عالم الذات المغلق إلى عالم الآخر المنفتح، وما يتولد بين الطرفين من أنسجة جراء هذا التفاعل بين المجموعات البشرية المتنوعة المشارب والجنسيات والعقائد "فهم نحن ونحن هم فقط اللسان، كل ما أعرف أجد له شبيها وكل من أر يذكرني بآخر"[14]، مما يؤدي إلى نشوء خطاب متعدد الأبعاد، لكنه في الوقت نفسه أحادي الاتجاه.

2. تداخل الأجناس الأدبية في جنس الرحلة

يعتبر أدب الرحلة أحد أكثر الأجناس الأدبية التي تتسم بالمرونة والانفتاح على أنماط كتابية متنوعة، مما يجعلها صعبة التصنيف ضمن إطار تجنيسي محدد. فهي تزاوج بين التوثيق والسرد، وبين الوصف الموضوعي والتأمل الذاتي، مما يمحنها طبيعة هجينة تجعلها تتقاطع مع أجناس أدبية وغير أدبية أخرى. وتبرز هذه الهجنة في تداخل الأجناس السردية، مثل: اليوميات، الرواية، الشعر، التاريخ، والجغرافيا، مما يولد حوارية عميقة ومعقدة بين الخطابات الأدبية.

وفي هذا الصدد، يرى الناقد المغربي شعيب حليفي أننا إذا نظرنا إلى جنس الرحلة من زاوية أخرى، فإنه "يوضح العناصر المشتركة بين كل هذه الأنواع الأشكال التي تظل واحدة في تعددها، تتعدل أسلوبيا، وتتخذ أوضاعا شتى في السياقات

---

[9] – عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، مرجع مذكور، ص: 11 – 13.

10– عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، مرجع مذكور، ص: 11 – 13.

11–نغوجي واثينغو، تصفية استعمار العقل، ترجمة: سعدي يوسف، دار التكوين، سوريا، طبعة جديدة ومنقحة، 2011، ص:66.

[12] – إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، د ط، 2000، ص ص: 8 – 9.

13 – إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة :كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1997، ص: 58.

[14]– عثمان أحمد حسن، رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 18.

الموضوعة لها، لهذا لا تخلو الرحلة من سرد ووصف وتعليق من الأنا المحركة لكل هذه المشاهدات المرويات والتخيلات والأحلام مما يجعل نص الرحلة: تسمية مفتوحة على احتمالات التنويع"[15].

تميزت رحلة الدبلوماسي عثمان أحمد حسن بورود الأشعار التي تتلاءم مع سياق رحلته، وهو ما نلمسه في قوله: "**أنا ابن** المدارين وخط الاستواء، أبلغ الشعراء عندي بعد خالنا عنترة هو صلاح أحمد إبراهيم الذي قال:

أنا من إفـــــريقيـــــــــا

صحرائها الكبرى وخط الإســـتواء

شــحنتني بالحرارات الشمـــــوس

وشوتني كالقرابين على نار المجوس

لفـــــــحتني منها كعود الأبنوس[16]"

عبر توظيف هذه الأبيات الشعرية يفخر الرحالة بجذوه الإفريقية ويستحضر تأثير الطبيعة والمناخ على تكوين هويته، مستعينا بالشاعر السوداني صلاح أحمد إبراهيم الذي مجد في شعره الهوية الإفريقية ضد العنف الاستعمار.

كذلك وظف السارد الجوال الأبيات الشعرية الغنائية في مروياته باعتبارها أداة أسلوبية تعزز التجربة المشتركة التي يمر بها أثناء جولاته في قارة إفريقيا. فالشعر الغنائي في هذا الصدد لا يقتصر فقط على كونه وسيلة تعبير فنية، إنما يصبح جزءا من نسيج الرحلة ذاته، حيث يتفاعل مع السرد والوصف ليثري النص الرحلي ويعمق أثره العاطفي.

ومن ذلك استحضار الرحالة صوت عبد العزيز محمد داوود وهو يشدو بالأبيات التالي:

همسات من ضمير الغيب تشجي مسمعي
وخيالات الأماني رفرفت في مضـــعجي
وأنـــــــــــــــــــا
بين ظـنــوني وكأنـــــي لا أدعـــي
عربدت بي هاجسات الشوق إذا طال النوى
وتوالت ذكرياتي مفعمات بالـــهـــــوى
كان لي في عالم الماضي غرام وإنطــوى
سكر السمار والخمر في حان الغـــرام
وأنا الصاحي أرى في النور أشباح الظلام
وغدت كاسي على راحي بقايا حطـــام
كان لي بالأمس أحلام وشوق وحبيــب
كان لي للجرح طبيب لا يجاريه طـــبيب
كان ما كان وبتنا كلنا نائـي غــريــب

[15]– شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، ط 3، دار رؤية، القاهرة، 2006، ص: 40.

[16] – عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 23.

فهـــــــل أنـــــت مـــــــعي[17]

عمد السارد إلى توظيف المادة الشعرية لتقريب المتلقي من صورة حية ومؤثرة للمسرح الذي دارت فيه هذه اليوميات. فمن خلال الأبيات الشعرية الغنائية، يقدم الراوي تجربته في تنقل بين الأقاليم الإفريقية كأنها مشهد مسرحي يتفاعل فيه مع الفضاء، عبر هذه الصور الشعرية، يكشف عن أحاسيسه الداخلية وتفاعلاته مع البيئة الإفريقية.

تلعب الأبيات الشعرية الغنائية في الرحلة دورًا أساسيًا في إثراء الصورة الأدبية للنص الرحلي، حيث تساعد في التعبير عن المشاعر والانفعالات الشخصية التي قد يعجز السرد النثري عن إيصالها بعمق، فهو يعمل على كسر رتابة السرد من خلال توظيف إيقاع لغوي مميز. فالشعر الغنائي، بطبيعته العاطفية والإيقاعية، يمنح الرحلة بُعدا وجدانيًا وروحياً، حيث يتحول النص الرحلي إلى مساحة يلتقي فيها الصوت الفردي للرحالة مع أصوات ثقافية متعددة، مما يثري التجربة الرحلية ويجعلها أكثر شمولًا.

يعكس توظيف الأبيات الشعرية في النص الرحلي المعاصر تفاعل السارد الجوال مع البيئة الإفريقية على المستويين العاطفي والفني، مما يضفي على الرحلة بعدا وجدانيا يتجاوز الحدود العرقية. فالفضاء لا يُختزل إلى مجرد بقعة جغرافية، بل يتحول إلى عنصر فاعل في تشكيل الهوية المشتركة بين الرحالة والمجتمع الإفريقي.

إن التعددية الخطابية في أسفار إستوائية: رحلات في قارة إفريقيا تجعل منه نصاً مفتوحاً، يستعير من الأجناس السردية الأخرى ليصوغ هوية الخاصة، مما أسهم في إغناء نص الرحلة بصور أدبية قلما نجدها في النصوص الرحلية. إذ يستعير هذا النص من الأجناس السردية المجاورة—كاليوميات، والشعر، والتأملات الفلسفية—ليؤسس لأسلوبه الخاص، ويصوغ رؤيته المتميزة. وقد أسهم هذا التعدد في إثراء البنية الرحلية للنص، مانحًا إياه طابعًا أدبيًا فريدًا لا نجده غالبًا في النصوص الرحلية الكلاسيكية.

3. التمثيلات الثقافية للجسد الإفريقي وهويات المقاومة في مواجهة الاستعمار:

إن لكل جماعة طريقتها الخاصة في تمثيل ذاتها وعرضها أمام الآخرين، باعتبار "الذات هي التمثيلية التي نحملها عن أنفسنا أو عن الآخرين"[18]. بالنظر إلى مجموع المعطيات والمؤشرات، تسعى الجماعة إلى تحصين هوية الثقافة وحراسها من اختراقات الثقافات الأجنبية عبر المقاومة والممانعة، بما يضمن ردا على التمثيلات المكرسة من قبل الآخر المتفوق، من أجل الحفاظ على هوية نقية مصانة من أي تشويه أو تحريف أو تدخل من قبل الأجنبي الذي يؤول أو يفهم نفس الواقعة انطلاقا من التجربة الاجتماعية لفئته.

ويختلف تمثيل الآخر تماشيا لموقع الناظر إليه؛ فالآخر ليس آخرا إلا بما هو مختلف عن الذات، ولا يمكن إدراكه إلا في علاقته بثنائية الأنا والغير. وعلى هذا النحو، يمكن القول إن الغاية لا تكمن في وصف الآخر والوقوف على أبرز صفاته، بل في قراءة فاحصة للآخر في مرآة الأنا. فمن خلال رحلة السوداني إلى جنوب إفريقيا، توصل إلى كثير من الأحكام التي تعكس رؤية الأنا في الآخر، ورؤية الأنا في مرآة الآخر بعيدا عن أي خروج عن الموضوعية أو لمكون جغرافي أو هوياتي. ومن ثمة، تختلف الجماعة في طرائق تمثيل ذاتها وعرض ثقافتها أمام الآخرين؛ فموقف الذات يحدد الطريقة؛ أي إن "الذات المقاومة للاستعمار الأجنبي تروم تفكيك الأنساق الاستعمارية والرد على المسكوكات الجاهزة. أما الذات الحاملة لأفق التغيير من أجل عدالة اجتماعية فهي تسعى أن تناضل عبر خطاب يضمن للذات نوعا من التحصين ضد أية نزعة مقاومة قد تهدف إلى تقويض السلطة التي تبتغي التغيير. وكما تختلف المنظورات والطرائف، تختلف الأغراض؛ إذ إن كل

---

[17] – عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 122.

[18]– عبد النبي ذاكر، الصورة الأنا الآخر، منشورات الزمن، سلسلة شرفات العدد 43، أكتوبر 2014، ص: 84.

جماعة تمثل ذاتها كي لا تتحول إلى موضوع للإنابة من قبل الآخر"[19]، فهي تنتج صورها الخاصة بغية مقاومة الهيمنة، وتمثل الآخر بهدف "تحصين الهوية الخاصة أو رفض الآخر أو السعي إلى تجاوزه أو الرد عليه (...) إن تمثيل الآخر هو شكل من أشكال التمثيل العام بوصفه آلية من آليات الهيمنة والإخضاع (...) غير أن تمثيل الآخر مهمة شاقة ومعقد وبالغة الصعوبة"[20].

وعلى غرار الاهتمام الغربي بالشرق، اهتمت كذلك الثقافة العربية بدراسة ثقافات الآخرين من أجناس الجنوب والشمال والشرق والغرب، مما جعلها تراكم تراثا مهما وأرشيفا بالغ الثراء عن "الأسود أو الزنجي وثقافته، وعاداته، وتقاليده، وأديانه، (...) منتوجاته ملبوساته"[21]. وإن كان العري هو الظاهرة التي تكاد تهيمن على الأجناس الافريقية، فقد جرى تصويرهم في وضعية ثبات مادامت "أرجلهم حافية، ثيابهم رثة، رؤوسهم حليقة إلا من خصلات تركوها تنوس عند مقدمة الرأس أو أركانه، للفقر عنوان وإن تخفى"[22] بنايتهم الخارجية "فارعو الطول، رؤوسهم حليقة حول أعناقهم أطواق من الخرز الأزرق والأحمر والأصفر منظومة بعناية تتدلى وتكسو الصدر حتى البطن"[23].

إن بقاء هذه الهوية، مصانة محفوظة، يظل مرتبطا أساسا بالتشبث بسياسات الهوية[24]، ذلك أن الحفاظ عليها يندرج ضمن الهوية الخاصة لهذا الشعب الرافضة للمكرس. ومن ثم، فإن أي محاولة لتغيير هذا النمط وتعويضه بنمط دخيل إنما هو هدم لهوية الأنا وتبن لهوية جديدة لا تراعي شروط هذا الشعب ووعيه الجماعي. ومن جهة أخرى، تبدو الهوية الخاصة قادرة على حماية استقلالها مادامت ترفض الاندماج في أي كيان هوياتي طارئ، مادام "موقع القيمة الثقافية الهجين هو المكان الذي يحاول منه المثقف ما بعد الكولونيالي أن يبلور مشروعا تاريخيا وأدبيا"[25]. فالجماعات العرقية تشق هويتها الخاصة بطريقة إيجابية من وعيها بما يميزها وما يمثل خصوصياتها، أي "هي واعية بخصوصيتها التي تتمثل فيما لا ينتمي إليه الآخرون"[26]. وهكذا، تصبح الهوية صوتًا وموقفًا إيديولوجيًا في صراعها مع الموقف المقابل، حيث إن كلما تطابقنا أو اختلفنا عن الخصوصيات المميزة للمنظومة الاجتماعية، نجد تمرد الجسد الخاص تجاه كل ما هو قار.

سعت الثقافة الغربية إلى تشييد نسق من التصورات الجاهزة تجاه الجسد الأسود، ذلك أن "حضوره في متخيل البيض يتأسس عبر النظر إليه بوصفه جسدا يحيل إلى هوية محلية لصيقة بلونه وعرقه"[27]، بينما تختلف تمثلات الرحالة الإفريقي للنساء الزنجيات؛ فهن "ذوات الجمال الطاغي والبسمة التي تشع في ظلمات الغربة والنوى"[28]، و"يعرفن أنهن جميلات يتركن

---

[19]– إدوارد سعيد، "تمثيل التابع والمحاورون الأنثروبولوجيون"، ترجمة: حازم عزمي، مجلة فصول، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد 11، العدد الثاني، صيف 1992، ص: 25.

[20]– إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، مرجع مذكور، ص:147.

[21]– نادر كاظم، تمثلات السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة 1، 2004، ص: 45-44.

[22]– عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 22.

[23]– عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 89.

[24]– إن مفهوم سياسات الهوية تم تطويره في سياق دراسات ما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية، وهو يشير إلى تلك الآليات التي تحدد الموقع السياسي للهوية، بوصفها كيانا مشكلا أو متخيلا. يراجع في هذا السياق: – محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2014.

[25]– هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، ترجمة: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، الطبعة1، 2006، ص: 299.

[26]– نادر كاظم، تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، مرجع مذكور، ص: 58

[27]– عماد الورداني، تمثيل الجسد في الرواية العربية، مرجع مذكور، ص: 358.

[28]– عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 32.

جمالهن الفتاك يذهل العيون، يخلب الألباب"[29]، في مقابل نظرته الدونية إلى المرأة الأوروبية، حيث يرى أنهن "يشتهين سمرة برونزية يضفينها على بياضهن الماسخ...تحيل ألوانهن بقعا غير متناسقة أو كالجلد المدبوغ"[30].

إن هذه التمثيلات الثقافية التي تُصنع في الخطابات الفكرية العربية موجهة أساسا لنقض المركزية الغربية، وما يقوم به الرحالة في الواقع هو عملية الوصف المقارن بين الهنا والهناك، فبواسطة بلاغة مقارنة يتم تسييج الذات الغيرية في تشابهاتها واختلافاتها مع الغير.

إن الإحساس بالاختلاف يترجم إحساسا بالكونية، وبالتالي نكون أمام وعي بقيمة الآخر دال اجتماعي على استحقاق الاهتمام؛ أي أن تكون شخصا ذا أهمية بالنسبة إلى شخص آخر هنا تتجلى الرغبة في إبراز الهوية الغيرية تبعا للشروط المادية والسيكولوجية والسوسيو–ثقافية، التي تسمح لمختلف أحاسيس الهوية بالتشكل، على نحو ما نجده واضحا في محكيات الرحالة السوداني، وخصوصا في ملاحظاته الدقيقة: "العاصمة كانت لاغوس(...) المخططون أحسنوا تخطيطها فشوارعها واسعة كل شارع يحمل اسم علم من أعلام إفريقيا، زعيما أو بلدا (...) الثراء يتيح الكثير من الاختيارات في التصميم والمظهر، والقوم مولعون بالتلوين والتزويق والفخامة" أنعطف يمينا للمسرح القومي، تحيطه التماثيل، تماثيل السود والملوك العظماء(...) تزدحم المدينة بالنصب والتماثيل، أسود وملوك ومحاربون على ظهور الخيل، نصب شهداء الخرب مع الإيطاليين، نصب يمجد الثورة الكورية، نصب يمجد الثورة الكورية، نصب يمجد إفريقيا أنصاب بلا حدود" أما المتاحف تتضمن "إرثا عمره آلاف السنين، رفاة الجد لوسي أقدم رفاة بشرية في شرق إفريقيا"[31].

غير أن ما تلزم الإشارة إليه في هذا السياق هو أن "حضور القيم الثقافية الأخرى، لا يفضي بالضرورة إلى تغيير للقيم الخاصة، وإنما إلى ترسيخها: ففي علاقتها بالغيرية تعي الهوية ذاتها، عبر تحديد نفسها ومقاومة ضغط الخارج"[32]، ويمكن أن نفهم أن جرعة الغيرية ضرورية لإنعاش جسد الهوية والمحافظة على توازنه واتساق وحسن حواره وجوارهما يشير إلى ذلك الباحث عبد النبي ذاكر.

تستمد الهوية الثقافية مقوماتها– إذن– من عناصر راسخة شكلتها ثوابت التاريخية، ولكن حين نتكلم عن الهوية الثّقافية الإفريقية، يتطلب الأمر إلى الإشارة إلى أنّها تعاني من تداخل في مستوياتها المختلفة جراء الاحتكاك الثقافي بالغرب في سياق فرضها المستعمِر على الشعوب الإفريقية سواء من قبل بلجيكا أو فرنسا أو بريطانيا، ومع ذلك، حافظ الإنسان الإفريقي في ذاكرته على أهم مقوماته ومكوناته اللغوية، والدينية، والعرقية، والتاريخية التي تميزه عن غيره.

وفيما يخص اهتمام الرحالة بالدين والعرق، نرى أن خطابه جاء خاليا من الأحكام النمطية المسبقة والتعميمات الخاطئة الجارحة، ويعزى ذلك إلى إيمانه المطلق بالتنوع الثقافي والحضاري، ورؤيته الخاصة التي تصدر عن ثقافة تتميز بقدرة على التحليل، ووعي نفسي واجتماعي متوازن، وتراكم معرفي أهله في أن تكون ملاحظاته على درجة عالية من الدقة بما ساعده على التأمل وبناء نظرة موضوعية تجاه العالم الذي يسعى إلى بناء رؤيته الديكولونيالية. ويظهر ذلك جليا من خلال حديثه عن التنوع الديني والعرقي الذي صادفه خلال لقاءاته بأفراد من ثقافات مختلفة، كما يتجلى في هذه المقاطع نوردها للاستشهاد: "يقال إن إثيوبيا هي متحف من حيث تعدد إثنياتها بالتالي لغاتها وأزيائها وسحنات أهلها كل ذلك أراه في لوحة واحدة متحركة تموج بالاختلاف والتنوع" ففي" بحر دار مدينة تتجلى فيها ثقافة الأمهرا حراس الكنيسة الأرثوذكسية في نسختها غير المنقحة، الرهبان وطلاب علوم اللاهوت في زيهم القطني والقفطان والصليب الذين يمنحون به البركة لطالبيها" بينما "دور العبادة تحكي عن تنوع وإنفتاح، مسجد كيبولي القبلة فوق ربوة أخرى يشرف على المدينة، المسجدان فوق

---

[29]– عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 26.

[30]– عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 85.

[31]– عثمان أحمد حسن، رحلات استيوائية: رحلات في قارة إفريقيا، مصدر مذكور، ص ص: –33–34–35–213–212.

[32]– عبد النبي ذاكر، الصورة الأنا والآخر، مرجع مذكور، ص: 90.

الربوتين كحارسين يسهران عليها، المسيحيون الكاثوليك فوق ربوة أخرى أقاموا مركز البابا بولص السادس، البروتستانت أقاموا كنيسة الشهداء في ناميرمبي، طائفة البورن أقين كنيستهم تصدح بالترانيم وتهتز بالرقص في سفوح نكاسيرو، في طرف السوق معبدان لطائفتين من الهنود، المبعد البهائي باذخ المعمار شامخ البناء في حي كيكايا شمال المدينة، الأحمدية لهم مسجد، الإسماعلية لهم مسجد"[33]، ومن خلال هذه المقاطع، يمكن الجزم بأن التعدد الإثني والعرقي في أفريقيا يمثل أحد أبرز مظاهر غنى التنوع الثقافي في القارة السمراء، إلى جانب انتشار الدين الإسلامي والمسيحية، حيث تتعدد الأديان التقليدية بنفس قدر تعدد ف الإثنيات في القارة. كما تتميز المعتقدات الإفريقية، في سياق رحلة عثمان أحمد حسن، بثرائه الطقوسي والاحتفالي، إذ يقول: "تحتفل في موسم محدد بختان صبيانها فتقيم احتفالات تعمر بالطعام وبالشراب ويتم الختان للصبيان الذين بلغوا عمرا معينا حلال العام والويل كل الويل لمن يعبر ديارهم في هذا الموسم وهو غير مختون مهما بلغ من العمر والمكانة علما أن الختان ليس شائعا في بقية القبائل ولكن في هذا الموسم فإن شفرة الخاتن ستنال منه نيلا"[34].

فعلى الرغم من اختلاف التشكيلات الدينية وتمايز الطقوس والعبادات، إلا أنها جميعا تعك هوية ثقافية إفريقية أصيلة.

كما تتنوع اللغات بتعدد القبائل "فاللغات الأفريقية في الكنغو كثيرة منها أربع لغات قومية، هي: اللنغالا، السواحلي، الشيلوبا وبتأثير الاستعمار البلجيكي فقد سادت اللغة الفرنسية بلكنتها البلجيكية وأصبحت لغة قومية يتحدثها الجميع وهي لغة المعاملات الرسمية والمناهج العلمية"[35]. إلى جانب ذلك، تحضر لغات أخرى مثل "العربية، والعبرية، والإنجليزية"[36]، ويعد هذا التنوع اللغوي نتاجا طبيعيا للاحتكاك بالثّقافة الغربية، التي فرضت وجود ثوابت ثقافية مميزة شكلت المسارات التاريخية لشعوب القارة السمراء. وقد أصبح هذا التنوع اللغوي ضرورة للتأكيد على قوة الهوية الافريقية، التي تضل قادرة على استيعاب التأثيرات الخارجية دون أن تفقد أصالتها.

إن الحركات المناهضة للكولونيالية تعتمد بشكل منتظم على الصور النمطية الإيجابية لتحديد هوية ثقافية أصلية، وتعمل على كشف مختلف أشكال الاستعمار التي لا تزال موجودة وبشكل خفي باستتارها القائم على مبدأ الممارسة التضليلية والتهميشية للرأي العام بغرض التحكم في العلاقات، وذلك بواسطة تمرير أخطر الأنساق وأشدها تحكم فينا كما يذهب إلى ذلك عبد الله الغذامي في كتابه "النقد الثقافي"[37]. وهذا ما أشار إليه إدوارد سعيد بأن هناك سمات ملازمة للنصوص التي تناولت البلدان المستعمرة.

4. الفضاء الإفريقي في السرد الرحلي العربي: بين التوصيف والتفاعل الثقافي

يواصل الرحالة تدوين انطباعاته بوصف ساردا جوالا "يصف ليسرد ويسرد ليصف"[38]، ليؤطر سرد العبور فعل السرد بشكل عام، وهو محكي في إطار تتوافق فيه نظام السرد مع باقي الأحداث المستعادة من الذاكرة والمرجعية الثقافية وفقا لنظام كرولونوجي تتلاحق فيه المحكيات والمشاهدات على امتداد مسار الرحلة، ويعد هذا السير شهادة ودليلا فعليا على فاعلية الرحلة. ويقتضي فعل العبور والتجوال انتقال السارد "من مكان إلى مكان، وانتقال –من جهة أخرى– أو بمعنى آخر إنها حركة تفاعل الزمان بالمكان، والمكان بالزمان"[39]. تستقطب الرحلة كل من الوصف والسرد، فكلاهما يخدم فعل السفر ويكمله، فإذا كان الوصف تعلق بالمكان، إذ هو يقدم معرفة به وبكل أشيائه، فإن السرد تعلقا أكثر بالزمان نظرا لخاصيته الدينامية، ولارتكازه على الأحداث والأفعال والتوالي.

---

[33]– عثمان أحمد حسن، رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، مصدر مذكور، ص ص: 29– 35– 74–152.

[34]– عثمان أحمد حسن، رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، ص: 162.

[35]– عثمان أحمد حسن، رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، ص: 119.

[36]– عثمان أحمد حسن، رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، ص: 30.

[37]– عبد الله الغذامي، نقد الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، ط1، 2005، ص: 77.

[38]– عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة 1، 1996، ص: 37.

[39]– عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، مرجع مذكور، ص: 28.

يسترسل عثمان أحمد حسن في الوصف والسرد قائلا: "كنشاسا تجمع متناقضات الحياة الإفريقية، فالفقر والغنى يتعايشان، سكانها البالغون أربعة عشر مليونا، بعضهم يتعاركون من أجل لقمة عيش صعبة المنال، وآخرون يتقبلون في نعيم الماس والذهب والكولتان والنحاس، الفقراء يسكنون بيوتا أو غرفا بائسة، الأثرياء يتنعمون في الفلل ذوات أحواض السباحة والجاكوزي"[40]. يضعنا هذا المقطع مباشرة أمام طريقة تقريب الموصوف للمتلقي، حيث يتم التركيز بأسلوب مشهدي على التفاوت الاجتماعي بين الفقر والغنى، متخذا من التصوير البلاغي أداة لنق الأشكال الدقيقة، ورصد الفوارق الاجتماعية تعرفها أكبر مدن جمهورية الكونغو الديمقراطية، فـ"أحياء المدينة تُنبى عن أحوال سكانها قومبي، الحي الذي كان يسكنه البلجيك المستعمرون، بيوته فلل ذات حدائق غناء، تصدح فيها الطيور وتُردد الببغاوات التحية بالفرنسية الناصعة، الخضرة وشط نهر الكونغو ذي المياه الدفاقة...جي بي حي الطبقة الوسطى مساكنه عمائر ذوات طوابق، مقسمة لشقق سكنية، رغم وفرة المساكن إلا أن الإيجارات خرافية يبلغ إيجار الشقة المتوسطة ألفى دولار للشهر الواحد... في المدينة بيوت قديمة ذوات حدائق ومسابح لم يقدر ساكنوها على صيانتها...المسابح غذت مكبا للقمامة، هياكل السيارات الصدئة، المرسيدس والفورد والجاغوار تقول إن القوم قد عاشوا عزا لم يحافظوا عليه فغلبهم الفقر"[41]، ويمكن تصنيف هذا النوع من "السرد الثبات بخلاف سرد الفعل"[42] أي أن السارد ينقل إلينا مجموع الأحداث التي وقعت في حضوره أو قبل مجيئه ولا يكون مشاركا فيها وإنما مشاهدا لها عبر حاسة البصر.

إن الحضور الواضح لعين الرحالة المتفحصة أسهم في التقاط لأفعال والأحداث والتشكيلات المختلفة التي تركتها الشعوب المستعمِرة، مما أنتج ضربا واحدا من التباين بين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة داخل المدينة ذاتها. فلم يكن الأفارقة في منأى عن السياسة الأوروبية، التي كرسها في جل مستعمراته، إذ انعكس تأثيرها على مختلف مناحي الحياة فـ"البضائع الفرنسية سيدة السوق، الملابس، ربطات العنق، الأحذية النظارات (...) الماركات الفرنسية والأوربية: قوتشي، كلفن كلين، ايف سان لوران كلهم تزحف الرفوف وتفيض"[43]. ولعل هذا التمثيل الخطابي يجعلنا نستشف أن الآخر بات مجرد أداة تتبنى الأفكار والمعتقدات الغربية التّي فرضها المستعمِر على الشّعوب الافريقية بوصفها أداة لطمس هويّتها الإفريقية.

إن السارد الجوال لا يكتفي في النص الرحلي بعرض هذا النوع من السرد، الذي يمثل سجلاً ثرياً بالتقاط الظواهر والعادات الدخيلة على المجتمع بشكل محايد، وإنما يلجأ إلى إضفاء رؤيته الشخصية على السرد، موظفا أسلوبا يمزج بين الملاحظات والتحليل والتأمل. وهو ما نلمسه في قوله: "حين أنظر في البيوت، في كل باب رسموا نجمة خماسية، أذكر في طفولتنا، كنا نرسم ذات النجمة الخماسية نسميها خاتم سليمان حفاظا لأشيائنا الثمينة، هم يرسمونها لتحفظ ما في البيوت من المعتدين"[44]، يبدو جليا في هذا المقطع السردي جنوح السارد إلى تصوير التوافق التماثل مع الواقع الاجتماعي للآخر. حيث سعى الرحالة إلى "تحويل جسد الرحلة إلى محطات سردية ترسم مواقع النص ومراحله على طول امتداد الرحلة. ووظيفة هذه المحطات خلق فسحة للسارد بهدف استرجاع الأنفاس"[45].

سمح المجال الدبلوماسي للرحالة أن يمارس متعته في الاستطراد والحكي والإضافة عبر سرد الأخبار؛ إذ لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يخلو نص رحلي من أخبار تشير إلى الماضي أو إلى الحاضر كما يشير إلى ذلك الباحث شعيب حليفي، حيث يتم توظيفها كأداة لدعم ما شاهده الرحالة بصريا أو مساهمته في تنويع مرجعيات السرد من أجل التأريخ

---

[40]- عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مصدر مذكور، ص: 121.

[41]- عثمان أحمد حسن، رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص ص: 121-122.

[42]- بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق دراسة في إنتاج الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة1، 2007، الدار البيضاء، ص: 212.

[43]- عثمان أحمد حسن، رحلات إستوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 146-147.

[44]- عثمان أحمد حسن، رحلات استيوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 86.

[45]- عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، مرجع مذكور، ص: 36.

لحدث معين، وتبعا لذلك وظف الرحالة السوداني نوعين من الأخبار التاريخية: الأول، "أخبار قديمة يستقيها من المؤلفات التاريخية يثغيا من ورائها نقل فضاءات حافلة بمؤشرات تاريخية يستعيدها الرحالة من أجل اكتمال رسم صورة الآخر، وثانيها، السماع المتصل بالأخبار الماضية التاريخية"[46]. وهذا ما نجده في "أسفار استوائية"، حيت يعمد السارد إلى استرجاع تاريخ أغلب تلك الفضاءات والأمكنة التي مر بها، وما جرى بها من أحداث جعلتها في موقع التذكر لأهميتها. يقول الرحالة عن ممباسا: "لموقع المدينة المفتوح على البحر أغرى بها المغامرين والمستعمرين في أوقات مبكرة، فلئن كانت سياسة الرومان تقوم على السيطرة على اليابسة فقد اخترع البرتغاليون السيطرة على البحر وجاء العرب بسياسة السيطرة على الجزر للسيطرة على البر والبحر معا كل أولئك تركوا بصماتهم وآثارهم في المدينة فالقلعة البرتغالية وقصور العرب واللغة الخلاسية الهجين تحكي في قصص مهيب سيرة من مروا من هنا في سالف العصور"[47]، لم يعبر الرحالة بمكان إلا وعاد بنا إلى ماضيه، ليسرد لنا بعض الأحداث التي جرت في تلك المنطقة، بحيث تنهض الذات بالتعبير عن الآخر والإخبار عن جوانب من حياتها بواسطة التذكر واستعادة الماضي بواسطة الذاكرة المشتركة بين الأنا والآخر[48].

ولم ينس السارد الجوال أن يسرد الأحداث المقترنة بعهد رحلته، كما يتضح من المثال الذي قدمه خلال زيارته لبحيرة فيكتوريا في جزئها الكيني، حيث صادف تنصيب باراك أوباما "التلفاز الكيني يعلن فوز مواطن أمريكي من أصل كيني بعضوية الكونجرس الأمريكي"[49].

فمن مميزات هذا السرد في النص الرحلي مزجه بين التأريخ الواقعي والإحالات المرجعية الثقافية التي ترتبط بالأحداث والشخصيات من جهة، وبالمتخيل والمسموع والمرئي من جهة أخرى.وعليه، يشكل الفضاء في السرد الرحلي إطارا عاما يتحرك فيه الرحالة، ويتيح له أن يقيم معه حوارات متعددة. إذ يلبس الفضاء نسقا من الرموز تستعمل لتمثيل العبارات، وتصوير الشخصيات من خلال العمليات التي تقوم بها في المحيط المكاني. كما في قوله: "في كمبالا لا تستوقفني الوجوه... فيها نضرة وجمال لا يخفيه الكدح الحثيث من أجل لقمة العيش، تشكيلة الوجوه تشبه لوحة الفسيفساء حيت تتماسك التفاصيل الصغيرة لتصنع لوحة كبيرة باهرة، الأشولي بتقاطيعهم ولونهم الأبنوسي، التورو والبنجورو بجمالهم الذي لاتخطئه عين والأنكولي بقوامهم السمهري والبشرة البرونزية مع لطف الباغندا وهدوء البسوقا تجد كثيرا من الحميمية واللطف "[50]، يتحول السرد هنا إلى ما يشبه التصوير الذي يعرض التفاصيل الصغيرة بطريقة فوتوغرافية أكثر واقعية وحيوية.

إلا أن الرحالة يقدم هذه المعارف، بما يظنه مفيدا للقارئ فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود حقيقي على الأرض؛ حيث اقتصرت رحلته على تدوين المشاهدات بالدقة والصدق، مع الحفاظ على جمال الأسلوب وقدرته على التعبير، دون أن تهيمن الذات على الآخر. فالتزم الحياة وعدم السقوط في فخاخ أحكام القيمة؛ فهو غالبا ما ينقل لقارئه صورة تكفي لبناء تصور عن الفضاء وناسه وعن الأحوال العامة للبلاد، وما تمتاز به من خصوصيات يجدر به أن يعرف عنها. ولعل هذا النزوع يؤكد الأفق الديكولونيالي الذي أضحى معه السرد الرحلي "أداة يمكن بها إعادة استكشاف العالم والتاريخ والإنسان"[51]. وهو ما يتجلى في التصوير المتوازن الذي يختلف عن التصوير المفارق الذي نجده في الرحلات الأوروبية إلى قارة إفريقيا، والتي تنهج تصويرا غير موضوعي يقوم على الاختلال بسبب الخلفية الإيديولوجية الاستشراقية. كما هو الأمر في هذا المقطع: "البيوت بسيطة، حوائطها من الطين والخشب وأسقفها من الحديد المقوى، تنتشر في أحيائها

---

[46]- شعيب حليفي، الرحلة في أدب العربي، مرجع مذكور، ص: 221.

[47]- عثمان أحمد حسن، رحلات إستيوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص ص: 87-88.

48 - يراجع في هذا السياق: - محمد الداهي، السارد وتوأم الروح: من التمثيل إلى الاصطناع، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء- بيروت، ط1، 2021.

[49]- عثمان أحمد حسن، رحلات إستيوائية رحلات في قارة إفريقيا، مصدر مذكور، ص: 104.

[50]- عثمان أحمد حسن، رحلات إستيوائية رحلات في قارة إفريقيا، مصدر مذكور، ص:153.

[51] - عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة: الأبنية السردية والدلالية، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013، ص: 195.

المساجد والكنائس، المساجد لا تكاد تتبينها فهي من بناء متواضع تشبه البيوت السكنية، الكنائس ترتفع قبابها التي يعلوها الصليب فوق المباني الحجرية تنطلق منها التراتيل والصلوات الخاشعة... المدينة متحف يحوي آثار ملوكها ومن مر عليها من المبشرين والمستكشفين والغزاة والجواسيس"[52]. لهذا نجد أن "الفضاء يحتل مكانة مركزية داخل محكي السفر لكونه الإطار العام الذي يتحرك في أرجائه الرحالة ويقيم فيه حوارات مختلفة ومتنوعة؛ لذلك يمكن القول إن النص الرحلي هو أساسا نص فضاء؛ لأنه يقوم على التنقلات بين هذه الأمكنة وما تحدثه من آثار في نفس الرحالة"[53]؛ إذ ينبثق تبئير[54] الفضاء في الرحلة من أن "السفر قبل كل شيء حركة في الفضاء"[55]، وهذا الفضاء يتغير من صورته الواقعية إلى صور أخرى يلجأ إليها الرحالة ليكسب فعل السفر دلالات إضافية تكسبه رمزية ثقافية تخرجه من نمطيته المعتادة. وعلى هذا الأساس، يصبح الفضاء في مرويات السفر بطلا حقيقيا يمتص "التصاديات بين الذات والآخر لحظة التفاعل والتمازج والتوتر، لذلك، فلا يمكن عزله عن باقي مكونات المحكي الرحلي، ولا يمكن إخلاؤه مما يعج به من فواعل وكائنات آدمية أو غير آدمية، حية أو جامدة، فمن العبث تصور مكان ما بمعزل عما يحويه"[56] من عناصر حكائية أخرى تؤثث حكاية السفر؛ لأنه ببساطة لا يمتلك معناه إلا من خلال تعالقات تحدث بينه وبين هذه العناصر، وهي نفسها ما تخلق دينامية الحكي وتحفز توالد الواقع وتعمق الحبكات والعقد السردية للسفر.

خلاصة

شكلت رحلة أسفار استوائية: رحلات في قارة إفريقيا نقطة تحول في مرويات السفر المكتوبة باللغة العربية في السنوات الأخيرة؛ إذ لم تقتصر على سرد مشاهدات السارد، بل جاءت بوصفها خطابا سرديا مضادا يعيد تشكيل الصورة النمطية التي وضعتها المركزية الأوروبية على إفريقيا. فمن خلال اليوميات، تمكنت هذه الرحلة من زعزعة التصورات المسكوكة التي كرسها الخطاب الكولونيالي والنيو–كولونيالي، مقدمة رؤية أكثر تهذيبا وإنصافا للقارة السمراء. وعليه، لا يمكن النظر إلى هذه النص الرحلي بوصفه توثيق جغرافي أو أنثروبولوجي، بل باعتبارها فعلا ثقافيا يعيد رسم حدود الفهم والاستيعاب بين الشرق وإفريقيا في مواجهة التمثلات الغربية المتوارثة.

بناء على ما سبق، توصي هذه الدراسة بإعادة قراءة الرحلات العربية المعاصرة إلى إفريقيا من خلال منظور ما بعد الكولونيالية، لما تتيحه هذه القراءات من إمكانيات لتفكيك السرديات الإمبريالية السائدة. كما تدعو إلى ضرورة تشجيع الباحثين على جمع وتحقيق نصوص الرحلات العربية المهملة، وترجمتها إلى لغات أجنبية أخرى، وذلك للإسهام في بناء أرشيف سردي بديل يعكس التنوع الثقافي والتجربة العربية مقابل السرديات الغربية.

---

[52]– عثمان أحمد حسن، رحلات إستيوائية رحلات في قارة إفريقيا، مرجع مذكور، ص: 55.

[53]– إبراهيم الحجري، متاهة المكان في السرد العربي، مرجع مذكور، ص: 35.

[54]– التبئير مصطلح اعتمد عليه جيرار جينيت كبديل لمصطلحات سردية كثيرة مثل "المنظور" و" وجهة النظر" و"الرؤية" و"الحقل" ومعناه أن الوقائع والأحداث والأشخاص لا تقدم لنا في ذاتها وبصورة مباشرة بل من منظور شخصية معينة.

[55]– عبد الفتاح كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار ثبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001، ص: 11.

[56]– أبراهيم الحجري، متاهة المكان في السرد العربي، مرجع مذكور ص: 37–38.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم الحجري، متاهة المكان في السرد العربي، دائرة الثقافة الشارقة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة 1، 2019.
2. إدوارد سعيد، "تمثيل التابع والمحاورون الأنثروبولوجيون"، ترجمة: حازم عزمي، مجلة فصول، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد 11، العدد الثاني، صيف 1992.
3. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1997.
4. إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، د ط، 2000.
5. بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق دراسة في إنتاج الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة1، 2007.
6. سعيد البازعي، هجرة المفاهيم: قراءات في تحولات الثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، ط1، 2021.
7. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، الطبعة 3، دار رؤية، القاهرة، 2006.
8. عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في اقرن التاسع عشر مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة 1، 2006.
9. عبد الفتاح كليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار ثبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001.
10. عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، منشورات الجمل، بيروت، الطبعة 1، 2009.
11. عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة: الأبنية السردية والدلالية، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2013.
12. عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الطبعة ط1، 1997.
13. عبد الله الغذامي، نقد الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، ط1، 2005.
14. عبد النبي ذاكر، الصورة الأنا الآخر، منشورات الزمن، سلسلة شرفات العدد 43، أكتوبر 2014.
15. عثمان أحمد حسن، أسفار استوائية: رحلات استوائية رحلات في قارة إفريقيا، دار السويدي للطباعة والنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات، الطبعة1، 2019.
16. عماد الورداني، تمثيل الجسد في الرواية العربية، دار الفاصلة للنشر، طنجة، الطبعة 1، 2020.
17. محمد الداهي، السارد وتوأم الروح: من التمثيل إلى الاصطناع، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء– بيروت، ط1، 2021.
18. محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2014.
19. نادر كاظم، تمثلات السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة 1، 2004.

20. نغوجي واثينغو، تصفية استعمار العقل، ترجمة: سعدي يوسف، دار التكوين، سوريا، طبعة جديدة ومنقحة، 2011.
21. هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، الطبعة1، 2006.